الدعوة إلى الإسلام والتبشير بالمسيحيّة -من أوجه الحوار الديني-

حسن تلموت[1]

خلاصة المقالة:

تحاول هذه المقالة إعادة موقعة فعل الدعوة / التبشير في مساحة «الحوار الدينيّ» الرحبة، عوض مساحة الصراع والخلاف؛ وهي مساحة تسمح المقاربة من خلالها بطرح وجهات النظر العقديّة من دون أن يرى أيّ طرف في ذلك عدوانًا من الآخر على الذات.

ومن هنا، كان لا بدّ من تحرير المفاهيم المركزيّة؛ من قبيل: «الدعوة إلى الله» و«التبشير»، وبيان التقاطعات بين دلالتيهما من خلال مرجعيّتهما النصّيّة، ثمّ محاولة بيان المفاصلة المطلقة بين دلالة الاصطلاحات باستعمال الأكثر تفسيريّة منها، عوض الأقلّ تفسيريّة؛ مثل: اقتراح الدراسة ترجيح استعمال اصطلاح «التبشير»، عوض اصطلاح «التنصير» في الثقافة «المسيحيّة».

ولكي تبقى «الدعوة إلى الله« عند المسلمين أو «التبشير بالمسيحيّة« عند المسيحيّين ممارسة حواريّة دينيّة راقية، ينبغي دعمها بشرطين اثنين:

-أوّلهما: تقديم العقيدة مخاطبة للعقل متوسّلة بأدوات الإقناع ، والقطيعة مع معادلة «العقيدة مقابل الخبز»؛ كما وُظّفت وما زالت توظّف اليو م في الواقع .

(1) باحث في الحوار الديني والفكر الإسلامي، من المغرب.

-ثانيهما: إلزام مؤسّسات الوصاية والوساطة المحلّيّة والدوليّة برعاية هذا النوع من «الحوار الدينيّ» بالحياد الذي يتساوى معه كلّ من الفريقين أمام الشرط السابق.

مصطلحات مفتاحيّة:

حوار دينيّ، دعوة إلى الله، تبشير بالمسيحيّة، تنصير، حقّ إنساني، إكراه، حرّيّة، موضوعيّة، إقناع، حِكَامة جيّدة.

مقدّمة:

إنّ خوض غمار أيّ بحث في مجال الأديان بدون «براديغمات» موجّهة، وباستقلال عن أيّ منطلقات قبليّة مطلقة -بعد أن يمضي في دروب التنقيب في النصوص، وفي التجارب التاريخيّة- سيُظهر جليًّا أنّ المنافحة عن الانتماء الدينيّ، والسعي إلى التبشير به، وطرحه في سياق الدعوة ومسار الإقناع، ليس أمرًا سلبيًّا البتّة، بل هو من وجوه «الحوار الدينيّ» التي لا يملك الإنسان عنها فكاكًا، بخاصّة عندما نتحدّث عن الصورة الشاملة للحوار الدينيّ، وفق دلالته الإجرائيّة التي تعني كلّ أشكال التفاعل الإيجابيّ الممكن توقّعها أو وقوعها بين المؤمنين بالرؤى العقديّة للأديان المختلفة تجاه الكون والحياة والإنسان، وهذه الدلالة الإجرائيّة هي التي عليها مدار توظيفنا لمصطلح «الحوار الدينيّ» في هذه الدراسة.

إنّ «الحوار الدينيّ الدَعَوِيّ» اليوم على الصعيد العملي -شئنا أم أبينا- واقع، بفعل الثورة الإعلاميّة التي لم تعد المعلومة معها تستأذن أحدًا للولوج إلى فناء بيته، بل والإقامة فيه؛ ولذلك فغضّ الطرف عن «الحوار الديني الدَعَوِيّ» - سواء في صورة «الدعوة/التبشير» أو في صورة «المغالبة/المناظرة» - هو من قبيل دفن الرؤوس في الرمال، والإعراض عن الواقع!

والذي يبدو أنّ الأقرب إلى الصواب هو طرح الفرضيّة البحثيّة على الصورة الآتية: ما الضير في طرح قضايا مثل: (الدعوة والتبشير)؛

باعتبارها من صور «الحوار الديني» الذي يُتوسّل به إلى الاتّفاق على مشتركات إنسانيّة/دينيّة؟ ولماذا لا تتمّ مناقشة جميع الرؤى العقديّة واللاهوتيّة بمنهج «القرآن الكريم»؟[1]

أوّلًا: موقع (الدعوة والتبشير والمناظرة) من «الحوار الديني»:

1. «الحوار الدعوي» الدعوة إلى الله عند المسلمين:

لقد كانت الدعوة إلى الإسلام أوّل ما دفع المسلمين-أفرادًا أو كياناتٍ معنويّة-إلى التحاور مع الآخر؛ محاولة منهم لتبليغ رؤية الإسلام للكون والإنسان والحياة، للناس جميعًا. لهذا، فدعوة غير المسلمين -من أهل الكتاب- إلى الإسلام، من الأمور التي عدّها العلماء المسلمون من أنواع الدعوة عمومًا، والنصّ القرآني قرن بين الدعوة الحكيمة إلى الإسلام والمجادلة بالتي هي أحسن في قوله -تعالى-: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[2]؛ ولذلك فلا مناص من اعتباره مصطلح «الدعوة» من الاصطلاحات التاريخيّة، والمعاصرة «للحوار الديني» في الفكر الإسلاميّ، بخاصّة إذا ربطنا الآية السالفة بتنصيص القرآن الكريم على مجادلة غير المسلمين من أهل الكتاب -بالتحديد- بالتي هي أحسن في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[3].

ويظهر من الربط بين معنيي الآيتين أنّ «الدعوة إلى الله» هي فعل

(1) وهو المنهج المبيّن في مثل قوله تعالى:
- ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران، الآية 64).
- ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 111)
- ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة سبأ، الآية 24).

(2) سورة النحل، الآية 125.

(3) سورة العنكبوت، الآية 46.

واحد يُقصد به أهل الكتاب وغيرهم، لكنّها تختلف في سياقات تجلّيها؛ فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تكون لغير أهل الكتاب، لاعتبار أنّ منطلقاتهم في الحوار، إنّما هي «شُبَهٌ» غير مؤسّسة أحيانًا، وعناد غير مبرّر أحيانًا، ومصالح يهدّدها النظام القيميّ الإسلاميّ، فلا وجه لطلب تنازلهم عنها بسهولة تارة أخرى، وبالتالي فهذه الرؤية الدعويّة ترى غير أهل الكتاب أشبه بالصفحات ناصعة البياض، والتي يُتَوسّل إلى ملئها بمضامين حكيمة مناسبة لمخزّنات فِطَرهم، بأساليب تفضي إلى الهدف لا إلى غيره.

وأمّا «المجادلة بالتي هي أحسن» فهي خاصةٌ بأهل الكتاب؛ لاعتبار أنّ لهم مسلّمات دينيّة ومنطلقات عَقَديّة جمعيّة تشكّل نسقهم المعرفي وسياقهم الاجتماعيّ، فهم غير مستعدّين للتحوّل من هذا النسق العقديّ والسياق الاجتماعيّ الذي يشكّل في وعيهم العامّ العناصر التفصيليّة لهويّتهم، جريًا على عادة الناس العقلاء الذين يعتقدون أنّ أيّ نظام قيميّ مناقض لعناصر الهويّة الجمعيّة التي ينتمون إليها هو استهداف لهم، فيتآزرون لمواجهته وردّه. ومن ثمّ نبّه «القرآن الكريم» المسلم -في سياق دعوة غير المسلمين إلى الإسلام- إلى هذه القاعدة الاجتماعيّة، وأرشد إلى أنّ تمحيص اعتقادات هؤلاء ومترتّبات هذه الاعتقادات السلوكيّة، تستلزم مجادلتهم في مضامينها بالتي هي أحسن؛ تبيينًا لهم للفروق بين انتمائهم الإنساني العامّ الذي يُلزمهم بعدم مصادمة اعتقاداتهم لقطعيّات العقل، وعدم مصادمتها-أيضًا-لما تَثْبت نسبته إلى الوحي من جهة، وبين الموروثات غير الإنسانيّة التي إنّما تسرّبت إلى تراثهم الثقافيّ، وتسربلت بسرابيل الدين وهو منها براء.

والأمر أنّ دعوة غير أهل الكتاب تتمّ بالمناقشة الحكيمة الهادئة للإشكالات والشُبَه، ودعوة أهل الكتاب تتمّ بالمجادلة الحسنة للمناهج والأدلّة، وكلا الأمرين يسعهما اصطلاح «الدعوة»؛ إذ إنّ عنصر المغالبة

التي تستهدف الإقناع والاستقطاب واضح فيهما بجلاء، وهذا ما يفسّر أنّنا نجد أنّ من يكتب في أمر الدعوة إلى الإسلام لا يميّز بين الأمرين، بل يتحدّث عنهما معًا تحت اصطلاح عامّ هو «الدعوة» الجامعة لمقاصد التبليغ جميعها؛ أيًّا كانت الفئة المستهدفة منه؛ فمثلًا يقول سيّد قطب في تفسير الآيات من سورة النحل: «والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبيّنه لهم في كلّ مرّة حتّى لا يُثقل عليهم ولا يشقّ بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها (...) فلا يتجاوز الحكمة في هذا كلّه، وبالموعظة الحسنة التي تدخل القلوب برفق وتتعمّق في المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، فإنّ الرفق في الدعوة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة، وبالجدل بالتي هي أحسن من غير تحامل على المخالف ولا ترذيل ولا تقبيح؛ حتّى يطمئنّ إلى الداعي، ويشعر أنّ الهدف ليس هو الغلبة في الجدل، ولكنّ الإقناع والوصول إلى الحقّ بلطف»[1].

و«القرآن الكريم« أوّل من دعا غير المسلمين إلى الإسلام بمنطق حواريّ في مضامين دينيّة؛ سواء في عرضه لمعتقدات أهل الكتاب وتقويمها، أو في طرحه لشُبَه غير أهل الكتاب والإجابة عنها، وكذا في تأسيسه لمحكمات برهانيّة ملزمة للمسلمين ولغيرهم، ثمّ في وضعه لضوابط صارمة محَكَّمة في صدق النتائج المتوصّل إليها أو تهافتها. وفي سياق الأولويّة والتفرّد، يأتي ما ورد في «السنّة النبويّة« من الرسائل التي بعث بها النبيّ ﷺ إلى زعماء الطوائف، وفي الوقت نفسه إلى قادة الأنظمة السياسيّة القائمة في زمنه.

ومفهوم «الحوار الدينيّ»؛ كما يعبّر عنه مصطلح «الدعوة إلى الله» يشمل التبليغ بالكلمة؛ سواء أكانت ملفوظة أم مكتوبة.. كما يشمل أنواع التفاعل التي تقنع الآخر بأنّ فلسفة الإسلام لا تقتصر على الادّعاء أو

(1) الشاذلي، إبراهيم حسن (سيّد قطب): في ظلال القرآن، ط32، مصر، دار الشروق، 1423هـ.ق/ 2003م، ج11، م3، ص2202.

تغذّي عند المسلم نزعة التميّز، بل تصبغ سلوكاته بمقتضى ما يؤمن به؛ ولذلك «فالإسلام لا يعترف بالشعارات غير المسؤولة، ولا بالمبادئ الفارغة، ولا بالتعاليم الخاوية عن المضمون، ولا بالقيادات المنفصلة عن الرسالة: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1]»[2].

وعليه، فإنّ التفاعل الذي يتمّ بين الناس ولو بغير لفظ أو مجاذبة لغويّة -ملفوظة أو مكتوبة- يمكن اعتباره حوارًا دينيًّا دَعَويًّا. ومن الأدلّة القاطعة على ذلك ما وقع من دخول كثير من غير المسلمين إلى الإسلام، بفعل تأثّرهم بالرسائل التي كانت تصلهم من سلوكات المسلمين. ففنيّ عن الاستدلال اليوم أنّ الإسلام دخل دولًا؛ كماليزيا، وأندونيسيا، أو بعض الدول في أوروبا؛ كالبوسنة والهرسك -مثلًا- عن طريق الدعوة بالسلوك من لدن التجّار المسلمين. والدعوة إلى الإسلام فعل للحوار الدينيّ مع الذات والآخر.

ومن المعروف في الجامعات الإسلاميّة اليوم أنّ النشر والبلاغ والإقناع والدعوة للإسلام، صار عِلمًا مستقلًّا بذاته، كسائر العلوم الإسلاميّة الأخرى، له موضوعه وخصائصه وأهدافه، وأصبح يجاري العلوم الإسلاميّة المختلفة ويواكبها، بل أصبح من أهمّ العلوم الإسلاميّة لحفظ عقيدة الأمّة وكيانها[3]، ولا يخفى أنّه في اعتبار «الدعوة الإسلاميّة» علمًا موضوعه حفظ العقيدة، إشارة ضمنيّة إلى فلسفتها الحواريّة في المجال الدينيّ. وبذلك، كان التفاعل والتواصل مع «الغير» بكلّ الأشكال اللفظية، وغير اللفظية التي يراد منها إقناع هذا «الغير» بدعوة الإسلام وحمله على بناء رؤيته إلى الكون والإنسان والحياة على مقتضيات عقائدها، يعتبران من أوجه «الحوار الدينيّ».

(1) سورة هود، الآية 88

(2) الواعي، توفيق: الدعوة إلى الله الرسالة-الوسيلة-الهدف، ط1، الكويت، مكتبة الفلاح، 1406هـ.ق/ 1986م، ص243.

(3) انظر: م.ن، ص19.

2. الحوار الدعوي.. بين التبشير والتنصير عند المسيحيّين[1]:

أ. التبشير في النصوص المقدّسة للأديان السماويّة:

لا بدّ في عمليّة البحث عن «أنموذج أكثر تفسيريّة» لمقاربة ظاهرة «الدعوة إلى عقائد النصارى» في بلاد المسلمين، من أن نفرّق بين «التبشير» بما هو مصطلح بريء يرمي في دلالته المفهوميّة إلى الإحالة على الفعل الدَعَويّ النصرانيّ، وبين مصطلح «التنصير» الذي يدلّ من صورته على القهر والإرغام والاستغلال.

وإذا تأمّلنا نصوصًا كثيرة من «**الإنجيل**»، فإنّنا نجدها تحيلنا على المعنى الإيجابيّ الأوّل؛ ومن أمثلة ذلك ما جاء في إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا: «35 **وَفِي الصُّبْحِ بَاكِرًا جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ، وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ، 36 فَتَبِعَهُ سِمْعَانُ وَالَّذِينَ مَعَهُ. 37 وَلَمَّا وَجَدُوهُ قَالُوا لَهُ: «إِنَّ الْجَمِيعَ يَطْلُبُونَكَ»، 38 فَقَالَ لَهُمْ: «لِنَذْهَبْ إِلَى الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ لأُبَشِّرَ هُنَاكَ أَيْضًا، لأَنِّي لِهذَا خَرَجْتُ»، 39 فَكَانَ يُبَشِّرُ فِي مَجَامِعِهِمْ فِي كُلِّ الْجَلِيلِ وَيُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ**»[2].

وفي سفر «**كلوسي الأوّل**»: «2 **وَاظِبُوا عَلَى الصَّلاَةِ سَاهِرِينَ فِيهَا بِالشُّكْرِ، 3 مُصَلِّينَ فِي ذلِكَ لأَجْلِنَا نَحْنُ أَيْضًا، لِيَفْتَحَ الرَّبُّ لَنَا بَابًا لِلْكَلاَمِ، لِنُبَشِّرَ بِالسِّرِّ الْمَسِيحِ، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنَا مُوثَقٌ أَيْضًا، 4 كَيْ أُظْهِرَهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ أَتَكَلَّمَ**»[3].

(1) وقفنا على تعريف يفرّق بين «التنصير» و«التبشير» ويجعل الفرق الجوهري بينهما؛ هو كون الأوّل متّجهًا إلى غير النصارى؛ بغرض إدخالهم في المسيحيّة، وأمّا الثاني فهو موجّه بين المسيحيّين أنفسهم باختلاف مذاهبهم، أي أنّ كلّ مذهب «يبشّر» بأصوله العقديّة وغيرها...(الحسيني المعدي، الحسيني: التنصير الأمريكي خطّة لغزو العالم الإسلامي (الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التنصيري الذي عقد بولاية كولورادو في الولايات المتّحدة الأمريكيّة عام 1978)، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة، 2011م، ص25 و مابعدها).
ولكنّ هذا التعريف لم يقدّم أدلّة -مقنعة أو غير مقنعة-على الأساس الذي أقام عليه تقسيمه للتعريف المذكور، كما أنّه خالف حتّى استعمال أصحاب الاصطلاحين لهما؛ ونعني «النصارى/المسيحيّين»، إذ غلب عليهم استعمال اصطلاح «التبشير» وإنكار استعمال اصطلاح «التنصير»؛ لما تحيل عليه دلالة هذا المصطلح الأخير من قدح. ولذلك، فالمفهوم الصحيح والذي يبدو من الدلالة اللفظيّة المباشرة للاصطلاحين، هو أنّ «التبشير» فعل مسالم يبتغي الإقناع وبيان البشارات، وأمّا «التنصير» فهو فعل قسري فيه دلالة الإجبار؛ كما أنّ اصطلاح «التبشير» في الإنجيل-كما سنرى-لا يحيل إلّا على هذا الذي ذكرنا.
(2) إنجيل مرقس، إصحاح01: 35/ 39؛ إنجيل لوقا، إصحاح04: 42/ 44.
(3) كلوسي01، إصحاح 04: 02/ 4.

وغير هذين النصّين نصوص كثيرة أوردت فعل «التبشير» بالدلالة المسالمة التي تعني عرض المعاني الدينيّة العقديّة والعمليّة، في مخاطبةٍ للوعي، ومفاصلة للقهر والإرغام.

ومفهوم «**التبشير**» يرد -أحيانًا- في الكتاب المقدّس باصطلاح آخر هو «**الكرز**»، وقد ورد هذا الاصطلاح-مثلًا-في وصايا عيسى عليه السلام لتلاميذه الاثْنَيْ عَشَرَ، حين «**أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: ... اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ، 7 وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ...**»[1].

و«الكرز» اصطلاح يحمل في دلالته معنى «الدعوة» و«التبشير» برؤية «المسيحيّة» للكون والإنسان والحياة..

بل من اللافت، أنّ بعض الترجمات العربيّة لنصوص «**الإنجيل**» استعاضت عن مصطلح «**التبشير**» و«**الكرز**» أحيانًا باصطلاح «**الدعوة**»، وانظر في ذلك مثلًا: «12 **فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى، 13 فَاذْهَبُوا وَتَعَلَّمُوا مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً، لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ**»[2].

ب. التبشير/التنصير.. بين خدمة الدعوة وخدمة السلطة:

إنّ التجلّي العمليّ للفعل «التبشيريّ» في غالب التاريخ الحديث لم يكن في كثير من الأحيان إلّا على صورة «التنصير» القسريّ!!! وهو ما ولّد لدى الباحثين -قبل عموم المسلمين- نوعًا من الحذر في التعامل مع الظاهرة، دراسةً وفهمًا وموقفًا؛ فتجد ممّن كتب عن النصارى في بلاد المسلمين من يرفض السماح لهم بالفعل التبشيريّ[3]، مع حرصه على مستوى من الموضوعيّة والاحترام، بل والاعتراف لهم بالحقّ في الشراكة على أرضيّة «المواطنة»، فقط لكونه يحكم بمنع النصارى من التبشير بدينهم داخل

(1) إنجيل متّى، إصحاح 10: 07.

(2) إنجيل متّى، إصحاح09: 13/12.

(3) انظر: السرجاني، راغب: مستقبل النصارى في الدولة الإسلاميّة، ط1، القاهرة، أقلام للنشر والتوزيع والترجمة، 1432هـ.ق/ 2011م، ص173-174.

البلاد الإسلاميّة، وذهنه يقرن بين هذا الفعل وبين تجلّيه في الحاضر وفي التاريخ السالف القريب، حين كان النصارى -وما زالوا في كثير من الأحيان- يقدّمون الإنجيل ويقدّمون معه الخبز في بلاد الإسلام الجائع أهلها، قارنين بينهما في اشتراط أخذهما معًا أو تركهما معًا، حين كانت بعثاتهم الاستكشافيّة تصرّح بكونها تحمل إلى الناس معنى قيم التسامح وتدَّعي لنفسها العلميّة، ثمّ حين تغادر هذه البعثات ما تلبث دولها أن ترسل على أَثَرها دبّاباتها لتغزو بلاد المسلمين، ليفهم الناس -متأخّرين- أنّ «الغطاء الدينيّ» إنّما كان يخفي تحته وجهًا جاسوسيًّا كالحًا!

ولا عجب في هذا الذي وقع، إذ إنّ «التنصير» و«الإكراه» قرينان لا ينفصلان، فلا يتحدّد كنه الأوّل، إلّا إذا خالط مظهر الثاني، الأمر الذي يزيل العجب -أيضًا- من المآل الذي حاد بالباحثين المسلمين إلى الخلط بين «التبشير» و«التنصير»، وحملهما في سلّة واحدة، وهذا مثال من أمثلة ذلك، ممّا ذكره بعض الباحثين: «لا بدّ من الإشارة إلى نقاط أساسيّة تمثّل الأساس الفكريّ للشكل العنيف، الذي تتّبعه الحركات التنصيريّة والتبشيريّة في نشاطاتها في مراحل كثيرة من تاريخها، وهي:

أ-تحوّل الدعوة للنصرانيّة من الإقناع بالوسائل السلميّة إلى الإكراه والغصب، بعد اعتناق إمبراطور القسطنطينيّة للمسيحيّة؛ وكان ذلك هو الأساس لفكرة محاكم التفتيش التي يعود أصلها في الواقع إلى الفكر الأرثوذوكسيّ وليس العكس.

ب-الحروب المتواصلة بين المذاهب المسيحيّة، وبخاصّة بين البروتستانت والكاثوليك؛ وكان الهدف الأساس لهذه الحروب هو فرض مذهب كلّ طائفة على الأخرى، وكانت جميعها حروب إبادة، وليس بهدف الانتصار فحسب.

ج-الاستعمار الغربيّ لأقاليم العالم الأخرى؛ إذ كان العنف هو الأساس في عمليّات التنصير التي جرت، والتي تلتها بعد ذلك حملات التبشير في المناطق التي تنصّرت»[1].

(1) الحسيني المعدي، التنصير الأمريكي خطّة لغزو العالم الإسلامي، م.س، ص26.

ولعلّ التسليم بكون الجذور التاريخيّة لأصول العنف الذي واكب الفعل «التنصيريّ» والذي بلغ مدى بعيدًا في القرون الأولى لظهور المسيحيّة، وكذا قَرْن ظهوره بالتحوّل السياسيّ للإمبراطوريّة القسطنطينيّة، يجلّي لنا بعض عناصر المعادلة، بل وأهمّ عنصر فيها على الإطلاق، وهو أنّ الفعل «التبشيريّ» تحوّل من خدمة «الله» إلى خدمة «السلطة السياسيّة« و«المصالح الاقتصاديّة» و«الهيمنة المذهبيّة/العقديّة»...؛ بمعنى أنّ الغرض من «التبشير» لم يكن الدعوة إلى العقائد ابتغاء وجه الله؛ لأنّ شأن هذا الأمر «الإقناع» وليس القهر، وإنّما كان الغرض منه -شأن كثير من التجارب التاريخيّة الأخرى- هو إرغام الناس على تبنّي مذهب الدولة الغالبة؛ لأنّ ذلك يكون أدعى للحفاظ على مصالح الطبقات الحاكمة في مختلف أبعادها.

ويتعدّد «العنف» المتوسّل به إلى «التنصير»، خدمة للمصالح الدنيويّة، في أوجهه وأشكاله، بحسب السياق التاريخيّ المتحدّث عنه، حيث ابتدأ أوّل الأمر قبل ظهور الإسلام بقرون بحرب إبادة لغير المتبنّين للعقيدة المسيحيّة؛ كما تراها الأجهزة الرسميّة في الإمبراطورية... وتجسّد بعد ظهور الإسلام في شكل حروب مقدّسة سميت بـ«الحملات الصليبيّة» أو «حروب الفرنجة»، والتي حقّقت للنصارى انتصارات على المسلمين، ثمّ ارتدّت حملاتهم عليهم تحت قيادة زعماء سياسيّين وعسكريّين مسلمين؛ مثل: عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبيّ، ثمّ اتّخذ شكل هذا «العنف» بعد هذه الجولة انعطافة أخرى، إذ سيتجدّد شكله؛ تماشيًا مع تطوّر الوعي الإنسانيّ وتغيّر الأدوات المتاحة لممارسته في شكل أكثر هدوءًا وأقلّ إثارة للمشاعر، وردود الأفعال، إذ «اجتمع بعض قادة النصرانيّة في أوروبّا؛ ومنهم: «لويس التاسع» ملك فرنسا، الذي كان يلقب بـ«القدّيس لويس» عندما رأوا أنّ نتيجة الصراع العسكريّ ليست في صالحهم، فقرّروا أن يكون سلاح المواجهة هذه المرّة القلم لا السيف، واللسان لا السِّنان، وأن يوجّه هذا السلاح للعقل لا الجسد»[1].

---

(1) الحسيني، التنصير الأمريكي خطة لغزو العالم الإسلامي، م.س، المقدّمة.

ومن هنا، ظهرت بعثات «التنصير» و«الاستشراق»[1]، لا للدعوة إلى النصرانيّة بمنطقٍ «تبشيري/دعوي»، بل مقدّمات لظاهرة عنفيّة حقيقيّة هي ما اصطلح عليه تاريخيًّا بـ«الاستعمار الغربي»، وقد وعى العلماء والمثقّفون المسلمون هذا الخطر -لكن بعد تجلّيه بوضوح-، فكتبوا يحذّرون منه؛ فكتب بعضهم قائلًا: «إنّ علماء التبشير والاستشراق هم عملاء الاستعمار في مصر، والشرق الإسلاميّ، هم الذين درّبتهم دعوة التبشير على إنكار المقوّمات التاريخيّة والثقافيّة والروحيّة في ماضي الأمّة الإسلاميّة، وعلى التنديد والاستخفاف بها، وهم الذين وجّههم كُتّاب الاستشراق إلى أن يصوغوا هذا الإنكار والتنديد والاستخفاف في صورة البحث، وعلى أساس من أسلوب الجدل والنقاش... إنّ التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلاميّ، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلاميّة، والغضّ من اللغة العربيّة الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربيّة، وكذا بين الشعوب الإسلاميّة الحاضرة، والازدراء بها في المجالات الدوليّة والعالميّة»[2].

إنّ تجلّي العنف في الممارسة «التنصيريّة» و«الاستشراقيّة» بات واضحًا في كونهما يهدفان لا إلى إقناع الناس بـ «النصرانيّة/المسيحيّة»؛ بوصفها دينًا وثقافة وعقيدة...؛ وإنّما يهدفان إلى تشكيك الآخرين -المستهدفين بـ«التنصير»- في قيمهم وخصوصيّاتهم، ثمّ لا يُهِمّ بعد ذلك ما تنتهي بهم إليه عقائدهم؛ طالما بقوا في منطقة انعدام الوزن التي تتيح لمن وراء هذا «التنصير» تحقيق مآربه؛ وذلك يعني أنّ «التنصير/الاستشراق» هو

(1) دمجنا «الاستشراق» مع «التنصير» في الحديث عن كونهما مظهرًا لممارسة العنفيّة لحماية مصالح السلطة السياسيّة، على اعتبار أنّ الباحثين في مجال «الاستشراق» اتّفقوا على أنّ المشتغلين فيه، انحسر بداية اشتغالهم في موضوعات «الدين» فقط. يقول «إدوارد سعيد»: «وبصفة عامّة كان المستشرقون حتّى منتصف القرن الثامن عشر من الباحثين في الكتاب المقدّس، ودارسي اللغات الساميّة، والمتخصّصين في الدراسات الإسلاميّة» (سعيد، إدوارد: الاستشراق المفاهيم الغربيّة للشرق، ترجمة: محمّد العناني، ط1، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006م، ص111).

(2) البهيّ، محمّد: المبشّرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام، لا.ط، مصر، الإدارة العامّة للثقافة الإسلاميّة، لا.ت، ص30.

في حقيقته مرحلة انتقاليّة نحو حالة استعمار يفتح باب الثروات الباطنيّة والموادّ الأوّليّة.. في البلدان المستهدفة، وهو ما يبلغ بنا إلى نقطة متفاوتة مع فلسفة «التبشير»؛ كما صرحت بها النصوص من «الكتاب المقدّس» والتي استشهدنا بها سلفًا في مرحلة التعريف.

إذًا بات «التنصير» هدفًا، يظهر تأسّسه على ما ذُكِر من ممارسة عنفيّة رمزيّة تبتني على زعزعة العقائد مكان بنائها، ويتّضح ذلك من خلال اعتراف «المنصّرين» وهيئاتهم المشتغلة بهذا الباب أنّ الدافع إليها هو استعصاء إقناع المسلمين بـ «النصرانيّة (المسيحيّة) من خلال الأساليب التبشيريّة، حتّى عبر «جورج بيتر» في مداخلته التي شارك بها في مؤتمر «كولورادو» التنصيريّ، عن عبثيّة تلك الجهود؛ بوصفها أنّها «كانت تجربة قاسية وحزينة في بذر البذور فوق الصخور ومشاهدة الطيور تلتقطها عن آخرها»[1].

لقد مهّد «جورج بيتر» بتحسّره هذا -على عدم استطاعته بلوغ «قلوب المسلمين» بأدوات التبشير العاديّة- إلى التأسيس لحالة العدوان من خلال ما أسماه «المنهج الشامل»، والذي من معالمه «الدعوة بأشكال مختلفة في مجال الخدمات الصحّيّة والاجتماعيّة والتعليم والمهنيّة والأكاديميّة والمؤسّسات الخيريّة ومؤسّسات الأيتام، وبناء المنازل للمعدمين...»[2].

إنّها مقايضة الخدمات الاجتماعيّة بالعقيدة، تلك معالم العنف «التنصيري» التي يعترف بتفاصيلها سدنة «التنصير»: «إنّها لحقيقة تاريخيّة أنّ مئات المدارس القرويّة وعديدًا من الكلّيّات فتحت الأبواب إلى عالم جديد لآلاف الناس ومكّنتهم من قراءة الإنجيل، والأدب النصرانيّ... إنّ للإرساليّات الطبّيّة أهمّيّة خاصّة للعمل بين المسلمين، فإنّها وسيلة ممتازة من وسائل إظهار المحبّة النصرانيّة، كما أنّ

(1) الحسيني المعدي، التنصير الأميركي خطّة لغزو العالم الإسلامي، م.س، ص623.
(2) م.ن، ص624-625.

المدارس والكلّيّات هي الأخرى وسائل قَيِّمة... وتوزيع الأدب النصرانيّ والأدب العامّ ذي الطبيعة المستنيرة هو نوع آخر من الأساليب المهمّة التي يتوجّب تطويرها...»[1].

وعليه، فإنّ المشروعين «التبشير والتنصير» -على المستوى النظريّ/ والعمليّ- غير متطابقين؛ فإذا كان «التبشير» يعني الدعوة ومخاطبة الناس بالإقناع لتحقيق أهداف دينيّة، فإنّ «التنصير» يعني ممارسة الأشكال المختلفة «للعنف»؛ تحقيقًا لمقاصد غير دينيّة، وإنْ تغلّفت في تمظهراتها التاريخيّة بأغلفة دينيّة؛ استدرارًا للتعاطف الشعبي من «المسيحيّين»، ولكنّ حقائقها سرعان ما انكشفت، وبخاصّة بعد الهجمة الاستعماريّة في شكلها التاريخيّ منذ أواخر القرن الثامن عشر.

ثانيًا: الدعوة والتبشير من أهمّ وجوه «الحوار الديني»:

1. مبدأ حقّ الدعوة والتبشير لكلّ الأديان:

إنّ ممارسة فعل «الدعوة» و«التبشير» يمثّل حقًّا إنسانيًّا، إذا ما توافرت فيه الشروط الموضوعيّة؛ من عرض لوجهات النظر، وموضوعيّة في الطرح، واعتماد منهج الإقناع لا الإرغام... من جهة، وإذا ما توافرت الحكامة الجيّدة من المشرفين على ضمان العدل والمساواة في حقّ ممارسته من جهة أخرى، ونخصّ بالذكر مؤسّسات الدولة، والمؤسّسات الدوليّة في كلّ مكان من العالم، حيث ينبغي أن تحمي حقوق المسلمين في الدعوة إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة؛ ولو في غير بلاد المسلمين، كما ينبغي في الوقت ذاته أن تحمي حقوق غير المسلمين في طرح رؤاهم العقديّة والتبشير بها، وأن تضرب بقوّة على يد كلّ من يعتمد أساليب الإكراه لزعزعة العقائد -سواء أكانت هذه الأساليب ماديّة أم رمزيّة- مهما كان دينه واجتهاده.

(1) الحسيني المعدي، التنصير الأميركي خطّة لغزو العالم الإسلامي، م.س، ص625.

وفي السنّة النبويّة الشريفة ما يشهد على هذه الحرّيّة في طرح المعتقد على الناس دون إكراه أو استغلال، حيث خاطب النبي الكريم ﷺ قريشًا قائلًا: «**خلّوا بيني وبين الناس**»[1]، وهذا القول منه ﷺ مثّل قاعدة جوهريّة في الفكر «الدعويّ الإسلاميّ». ومن المعلوم، استنادًا على مصداقيّة النبيّ ﷺ وحجّيّة سنّته أنّ القواعد التي يضعها «النبيّ» لا تقبل التجزيء، بل إنّه ﷺ يكون دائمًا أوّل من يخضع لها ويلتزم بها؛ فلم يكن من شيمه الغدر إطلاقًا، على ما تشهد به سيرته العطرة، ومنها: تجربة «صلح الحديبية»؛ بوصفها مثالًا واضحًا، يبيّن أنّ القواعد التي اتّفق فيها النبيّ ﷺ مع «الآخر» تُلزمه، فكيف بالقواعد التي كان هو المبادر إلى التصريح بها والدعوة إليها.

2. الدعوة والتبشير سعادة الدنيا والآخرة عند المسلمين والنصارى:

عطفًا على ما سلف، فإنّ الذي تبدّى هو أنّ حوار «الدعوة» و«التبشير» من أهمّ أنواع «الحوار الدينيّ» التي ينبغي خوض غمارها والحرص عليها اليوم.

ومبعث أهمّيّة هذا النوع من الحوار -عند المسيحيّين والمسلمين -بالخصوص وعلى حدّ سواء-لأنهم معاً يعتقدون أنّ فيه سعادة الدنيا والآخرة؛ لأنّ الدعوة يُبتغى بها وجه الله، ويُراد من ورائها الجزاء الأخرويّ، إذ إنّ الدعوة إلى الله بالنسبة إلى المسلمين هي أغلى ما يعيشون لأجله؛ استجابة للتنصيص القرآني على ذلك، في مثل قوله -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2]. كما أنّ النصّ القرآنيّ -أيضًا-أمر بدعوة غير المسلمين إلى الإسلام. وقد فهم المسلمون أنّ الأمر في هذه الآية يفيد الوجوب؛ ولذلك قرّر العلماء أنّ المسلم لا بدّ أن يُبَلِّغ دينه للناس حسب إمكاناته واستطاعته، ومن ثمّ

(1) ابن حنبل، أحمد: مسند أحمد، لا.ط، بيروت، دار صادر، لا.ت، ج4، ص323.
(2) سورة فصّلت، الآية 33.

ظهرت الحاجة إلى التواصل مع غير المسلمين؛ تحاورًا وتبليغًا. «فالدعوة إلى الله -إذًا- دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ودعوة المسلمين إلى تنفيذ الإسلام والعمل على إقامة شرعه ومنهجه في الأرض، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليفوز الناس بسعادة العاجل والآجل»[1]؛ ولذلك فقد أحدث المسلمون في العصر الحديث مؤسّساتهم الدعويّة لتبليغ قيمهم للناس، وحمل الناس بالحكمة والموعظة الحسنة على الإيمان الإسلامي.

والنصارى -أيضًا- بعد تجارب مريرة، صاروا يتحوّلون إلى الاقتناع بأنّ العبور إلى عقول الناس وقلوبهم ينبغي أن يمرّ عبر مسلك «التبشير»؛ كما تبيّنه نصوص «الإنجيل» التي استمددنا منها دلالته ومنهجه، من دون اللجوء إلى غيره من وسائل الإغراء أو الإرغام، كما وقفنا عليه في مبحث الفرق بين التبشير والتنصير. وقد وقع بعض هذا فعلًا؛ فتأسّست لذلك مؤسّسات، وأرسل سفراء للدعوة إلى المسيحيّة ومحاولة إقناع الناس بها، ونُظِّر لذلك تحت اصطلاح خاصّ هو «التبشير» أو «الكرز»؛ أي ذلك النشاط الدعوي الذي يراد منه تعريف الناس بعقائد الإنجيل.

وقد ظهر مدى أهمّيّة سلوك معبر التبشير؛ بوصفه وجهًا من وجوه «الحوار الدينيّ» مع المسلمين، بعد فشل الحملات الصليبيّة التي كانت تهدف إلى تطويع الأجساد بقهر أصحابها أحيانًا، أو بعرض إشباع رغباتها المادّيّة مقابل تغيير المعتقدات والقناعات أحيانًا أخرى!! وقد كان يظنّ المنَظِّرون والمجهّزون والمشاركون في تلك الحملات أنّها ستُحقّق حلم الاسترداد بالقوّة والعنف للأرض المسيحيّة التي دخلها الإسلام، في إغفال تامّ لعنصري الحسم في أيّ عمليّة لانتشار للدين؛ وهما:

- عنصر «العقل البشريّ» واقتناعاته التي تخضع لمحدّدات منطقيّة ذاتيّة لا يستشير العقل فيها حتّى صاحبه.

(1) الواعي، الدعوة إلى الله الرسالة -الوسيلة- الهدف، م.س، ص19.

- عنصر «القلب البشري» وتفاعلاته التي لا تستجيب للخطابات الوعظيّة والرسائل الدينيّة؛ إلّا بحسب انسجامها مع مخزونات فطريّة لا يتحكّم المرء في استثارة ردود أفعالها.

ومن هذا المنطلق، «كانت نشأة الإرساليّات التبشيريّة نتيجةً لفشل الحملات الصليبيّة؛ إذ أدرك الأوروبيّون أنّ الشرقيّين تفوّقوا عليهم بعامل الدين، وأنّ المشاعر الدينيّة هي التي اجتذبت المسلمين من الأماكن البعيدة ليقفوا -متطوّعين- إلى جانب المحاربين المسلمين، ونال العسكريّين اليأسُ البالغُ من انتصارهم على قوم يتمسّكون بدينهم كلّ هذا التمسّك، ونال رجالَ الكنيسة حزنٌ عميقٌ إذ كانوا يتوقّعون بعد خطاب «أربنوس» والجمع الغفير الذي استجاب له، أن تسيطر أوروبا في جولة خاطفة على الشرق، وأن تسود المسيحيّة كلّ ربوعه، فلمّا باءت كلّها بالفشل الذريع، ولم ينل الأوروبيّون بعد طول الزمان، وتكرار المحاولات، سوى خسارة الأرواح والأموال والعتاد، لجأوا إلى غزو سلميّ مأمون العاقبة؛ وهو العمل على نشر المسيحيّة بالدعاية والإغراءات المادّيّة، ودعا الأمر إلى إعداد مبشّرين ذوي مقدرة على أداء هذه الرسالة، مسلّحين بثقافات خاصّة تمكّنهم من أن ينالوا بالسِّلم ما لم ينالوه بتطاول زمن الحرب»[1].

إنّ هذا التحوّل من الغزو المسلّح إلى التبشير، وإنْ كان دافعه المباشر في هذه المرحلة التاريخيّة هو ما ذُكر من يأسٍ من نتائجَ تُذكَر للعمل المسلّح[2]، وتحوّله، إنّما كان من الوسيلة الحربيّة العنفيّة إلى وسائل الإغراءات المادّيّة؛ إلّا أنّ أسلوب «التبشير» الذي عُبِّر عنه بـ«الدعاية» يتجلّى واضحًا في ما أصبح يرافق وسائل الإغراء؛ من توزيع لمنشورات ومسموعات ومرئيّات يُراد من ورائها محاولة مخاطبة العقول

(1) شلبي، عبد الجليل: الإرساليّات التبشيريّة (كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوّره وأشهر الإرساليّات التبشيريّة ومناهجها)، لا.ط، مصر، منشأة المعارف بالإسكندريّة، 1987م، ص151.

(2) انظر: الحسيني المعدي، التنصير الأمريكي خطّة لغزو العالم الإسلامي، م.س، المقدّمة.

والقلوب؛ بما قد يحقّق لديها شيئًا من الاستجابة، وهذا الأمر لا يخلو من خلفيّة تسليميّة تهدف إلى بلوغ النجاة في الآخرة. ويبيّن لنا القدّيس «أغسطينوس» هذه الخلفيّة، فيقول: «ما هو هدفه في التبشير؟ إنّه يقصد نوال جزاء الإنجيل نفسه والحصول على ملكوت الله، وبذلك يبشّر طوعًا لا كرهًا. فهو يقول، فإنْ كنت أفعل هذا طوعًا فلي أجر، ولكنْ إنْ كان كرهًا، فقد استُؤمنت على وكالة، أي إنْ كنت أبشّر كرهًا للحصول على الأشياء الضروريّة للحياة، فسينال بواسطتي الآخرون جزاء الإنجيل، هؤلاء الذين أحبّوا الإنجيل في ذاته بواسطة تبشيري، وأكون أنا قد حُرمت من هذا الجزاء؛ لأنّي لا أحبّ الإنجيل لذاته، بل للحصول على الأشياء الزائلة. فمن يخدم الإنجيل؛ كعبد، وليس كابن، يكون قد أخطأ في الوكالة التي أستُؤمن عليها؛ لأنّه يكون كما لو أعطى الآخرين ما قد حرم نفسه منه، فلا يكون شريكًا في ملكوت السماوات، بل يُطرد خارجًا، لكنّه يأخذ الطعام؛ كأجرة للعبوديّة البائسة. هكذا ليس الكلّ يخدم الله من أجل سعادة الكنيسة، بل هناك من يخدم لينال الأشياء الزمنيّة، وقد قيل قبلًا، لا تقدروا أن تخدموا سيّدين، من ثمّ ينبغي أن نضع الخير للجميع بقلب بسيط؛ بقصد نوال ملكوت الله فقط، دون التفكير في نوال الجزاء الزمنيّ وحده أو مع ملكوت الله»[1].

3. الدعوة والتبشير نحو أفق متقدّم للحوار والتفاهم:

إذا استحضرنا أنّ التلفيق والمزج بين المعتقدات لخلقِ هجينٍ يمكّن من التقارب، ليسا من الإمكانات التي تتيحها العقائد جميعها بالمطلق، فـ«ليس المقصود بالتقريب بين الأديان، القضاء على استقلاليّتها؛ وذلك بالوصول إلى صيغة تقريبيّة بينها أو إلى دين مشترك أو عقيدة مشتركة

(1) الهدف في التبشير، للقدّيس أغسطينوس، نشر بتاريخ 16 أيلول 2012م
httP://mase7y.com/fr-augustinos-sayings/2892-fr-augustinos-sayings-goal-in-Preaching.html

(...) والخروج من هذه العمليّة التلفيقيّة بدين أو مذهب جديد»[1]. فإنّ المستشرق الألماني «هربرت بوسه» -الذي يُلمس من بحثه المهمّ «أسس الحوار في القرآن دراسة في علاقة الإسلام باليهوديّة والمسيحيّة»[2] مستوًى متقدّمٌ من الموضوعيّة وقدرٌ من الحياد- يرى أنّ «الدعوة الإسلاميّة» و«التبشير المسيحي» -اصطلاحًا وممارسةً- يصلحان ليكونا المدخل المتميّز للتطوّر نحو مرحلة حوار عميق، بل إنّه يرى أنّه وقع هذا التطوّر فعلًا عندما بدأ المسلمون الدعوة، وانتشرت الأنشطة الدعويّة، فحدث عند النصارى التحوّل من التنصير إلى الحوار؛ وذلك بفعل مرحلة انتقاليّة هي مرحلة ظهور القانون الدولي الذي أدّى إلى نتيجة هي اعتراف الدول المستقلّة فيما بينها بالحقوق الشخصيّة والصداقة المتوازنة. لكنّ هذا الانتقال مرّ بمرحلة «التنصير»، ثمّ استقرّ على أرضيّة الحوار، والمرحلتان كان أوّل من عمل عليهما «شارلز لفجير» الرائد الذي كان مطرانًا في الجزائر، والذي كان لا يزال يفكّر في التنصير التقليدي، فأسّس جمعيّة دينيّة للرهبان البيض والراهبات البيض للعمل بين المسلمين، كما عمل عليهما أيضًا «شارلز دي فوكو»، فقد افتتح مرحلة انتقاليّة، فأقام زاهدًا بين الطوارق، وأراد أن يؤثّر فيهم من خلال أسلوبه... وقد قلّده في هذا رابطة الرهبان الدينيّة لجماعات رهبان وراهبات جماعة يسوع الصغيرة. وظهرت خطوات أخرى من عمل المستشرق اللاهوتي «لويس ماسينيون» الذي اهتمّ بالتصوّف الإسلامي وحاول بهذا الأسلوب أن يقيم علاقات مع المسلمين، وبمبادرة منه تأسّس في القاهرة عام 1940م معهد يحمل مبدئيًّا اسم «دار السلام»، وهو مكان لتلاقي النصارى والمسلمين في الحفلات والمحاضرات الدينيّة المشتركة في مجالات مختلفة

(1) حسن، محمّد خليفة: الحوار بين الأديان أهدافه وشروطه والموقف الإسلامي منه، لا.ط، الإمارات، مركز زايد للتنسيق والمتابعة، 2003م، ص16.

(2) بوسه، هربرت: أسس الحوار في القرآن دراسة في علاقة الإسلام باليهوديّة والمسيحيّة، ترجمة: أحمد محمود هويدي، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م، ص196-197.

متّصلة بموضوعات دينيّة أو حضاريّة في الإسلام والنصرانيّة، وتنشر المحاضرات التي تلقى يوم الثلاثاء منذ عام 1951م في مجلّة «الثلاثاء في دار السلام»[1].

ولا يعنينا هنا أنَّ رصْدَ هذا المستشرق قارب تاريخ التحوّل من التنصير إلى الحوار من زاوية نظر التاريخ النصراني، فإنّ ما ذكرناه سلفًا من محدوديّة أفق التبشير المسيحيّ، سيكون بالتأكيد حاملًا للنصارى على البحث عن أفق أرحب، ولن يكون «الحوار الدينيّ» إلّا تجلّيه الأبرز.

خاتمة:

إنّ الدعوة إلى الإسلام، أو التبشير المسيحيّ، في صورتهما المحايدة التي تخاطب العقول في نوع من الهدوء النفسيّ وفي غياب عناصر ضاغطة، لا شكّ أنّها ما زالت صورة من صور الاصطلاح المتداول، والذي يعبّر عن مفهوم حواريّ مغالباتي، كما يحمل في داخله إمكان التطوّر نحو صورة أرقى للاجتماع على طرح الأسئلة العقديّة، وتناولها بالنقاش، وإخضاعها للمناهج النقديّة في العلوم الاجتماعيّة؛ بغية الوصول إلى المشتركات في الرؤى العقديّة، وتأسيس الأفعال عليها، أو ترجيح الرؤى العقديّة السليمة والوحيدة للكون والإنسان والحياة، وترك ما يناقضها؛ إذ إنّ الحوار في القضايا العقديّة لا يتيح إلّا هاتين الإمكانيّتين، وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...الآية﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[3].

وقد ورد هذا المعنى في وثيقة رسميّة من وثائق الفاتيكان صدرت عام

(1) انظر: بوسه، أسس الحوار في القرآن دراسة في علاقة الإسلام باليهوديّة والمسيحيّة، م.س، ص196–197.

(2) سورة آل عمران، الآية 64.

(3) سورة البقرة، الآية 111.

1984 للميلاد، اعتبرت «أنّ الحوار يتيح الفرصة للآخرين؛ كي يختبروا بأنفسهم القيم الإنجيليّة بشكل واقعي»[1].

(1) السمّاك، محمّد: مقالات في الحوار الإسلامي المسيحي، ط1، لبنان، المكتبة البولسيّة، 2007م، ص14.